

انتماء تراث الكنيسة القبطية إلى  
المشروع الحضاري الإسلامي

obeyikan.com

## انتماء تراث الكنيسة القبطية إلى المشروع الحضاري الإسلامي

دخلت المسيحية إلى مصر مبكراً جداً - على يد القديس مرقس أحد حواربي المسيح عليه السلام.

وقد واجه المسيحيون في مصر موجة بعد موجة من الاضطهاد الروماني خصوصاً في فترة حكم (ديسيوسي) و (خاليريان) و (ديو كليتان) في القرن الثالث الميلادي وبداية القرن الرابع، وذلك بسبب اختلاف الديانة المسيحية عن ديانة الإمبراطورية الرومانية ( الوثنية ).

وحيثما دخلت الإمبراطورية الرومانية في المسيحية على يد الإمبراطور قسطنطين فإن الاضطهاد قد توقف قليلاً ليعود بعدها أشد قسوة تحت دعاوى أخرى، ذلك أن الإمبراطورية الرومانية حاولت السيطرة على الكنيسة المصرية وإخضاعها لأوامر الإمبراطور.

إلا أن الأنبا أثناسيوس رفض ذلك وحدد موقف الكنيسة المصرية في عدم الخلط بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية وكتب إلى الإمبراطور الروماني قسطنطينوس قائلاً: ( لا تقحم نفسك في المسائل الكنسية، ولا تصدر إلينا أمراً بشأن هذه المسائل، لقد أعطاك الله المملكة وعهد إلينا بأمر الكنيسة وليس مسموحاً لنا أن نمارس حكماً أرضياً وليس لك سلطان أن تقوم بعمل كنسي ).

وكانت النتيجة أن تعرّض الأب أثناسيوس للمطاردة من قبل سلطات الدولة الرومانية التي وضعت جائزة لمن يأتي برأس إثناسيوس، واستمر البطريرك القبطي

أثناسيوس مطارداً لمدة عشرين عاماً كاملة حماه خلالها الرهبان والفلاحون وعلى هذا الأساس وبناء على ذلك الموقف - أصبحت الكنيسة المصرية عملياً ورسمياً مستقلة عن الكنيسة الرومانية وأصبح اسم إثناسيوس علماً على القبطية الأرثوذكسية.

وكان من الطبيعي أن تستمر عمليات الاضطهاد للأقباط في مصر على يد الرومان.

وفي عام ٤٥١ م أكدت الكنيسة المصرية مرة أخرى استقلالها على المستوى العقائدي، حيث رفض الأنبا المصري (ديوسكورس) مقررات مجمع كالدونيا حول طبيعة المسيح، ووقف الشعب القبطي مع الأنبا (ديوسكورس)، ورفضوا معه مقررات مجمع كالدونيا.

وقام الرومان بخلع (ديوسكورس) ومحاولة فرض بطريك جديداً مصنوع في روما، إلا أن الشعب القبطي رفض ذلك ومنع البطريرك الجديد من دخول الكنيسة في الإسكندرية إلا أن جنود الإمبراطورية أحدثوا مذبحه هائلة للناس على أبواب الكنيسة حتى يتمكنوا من إدخال البطريرك الجديد.

وشهدت تلك الفترة أسوأ عمليات الاضطهاد الروماني ضد الأقباط في مصر وعرفت تلك الفترة عشرات الشهداء بل عرف العصر كله بعصر الشهداء، وعاش الرهبان الأرثوذكس في سراديب تحت الأرض واستمروا في معارضتهم للكنيسة الرومانية رغم الاضطهاد والمطاردة.

وفي عهد الإمبراطور الروماني هرقل حاول هذا الإمبراطور أن يستثمر النفوذ الذي حصل عليه من حملاته العسكرية الناجحة ضد الفرس وأن يفرض بالقوة توحيد الكنيسة المصرية والكنيسة البيزنطية إلا أن المحاولة لم تفلح رغم دمويتها ووحشيتها.

وهكذا فإن الكنيسة المصرية قد تميزت باستقلالها عن الكنيسة الرومانية على

## الأقليات.. المشكلة والحل

مستوى العقائد حول طبيعة المسيح كما أنها تمسكت بالفصل بين السلطتين الزمنية والروحية وأنها عانت من الاضطهاد والقهر بسبب ذلك.

وفي عهد البطريك القبطي بنيامين جاء الفتح الإسلامي إلى مصر ورحب الأقباط في مصر بهذا الفتح للخلاص من الاضطهاد الروماني من ناحية ولثقتهم في عدل وسماحة الإسلام من ناحية أخرى.

وانطلاقاً من روح الإسلام ومبادئه السمحة والعادلة فإن الفاتحين المسلمين قد أعطوا الأمان والسلامة للبطريك القبطي بنيامين الذي كان مختفياً من الاضطهاد الروماني واستقبل عمرو بن العاص البطريك القبطي بنيامين وأكرمه وقال له: (جمع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم). واحترم الفاتحون المسلمون حرية العقائد والكنائس ولم يتدخلوا قط في شأن من شؤون الكنيسة.

ودخل الكثير من الأقباط المصريين الإسلام طواعية وظل البعض الآخر متمسكاً بمسيحيته دون خوف أو اضطهاد، ولكن الجميع انخرط في الإبداع الحضاري والثقافي والإسلامي، وأصبحت الثقافة الإسلامية واللغة العربية هي ثقافة المسلم المصري والمسيحي المصري على السواء.

ومما يلفت النظر هنا أن الشعب المصري الذي لم يتأثر بالحضارة الرومانية والهيلينية لأكثر من ألف عام - انخرط في الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية في بضعة أعوام..

ومن يومها أصبح الشعب المصري بمسلميه وأقباطه جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية والمشروع الحضاري الإسلامي.

بل ووجدنا من الأقباط من ينبغ في علوم اللغة العربية وعلوم الفقه الإسلامي، بل وعندما تم إنشاء الأزهر كان للأقباط رواق خاص بهم في هذه الجامعة العلمية الإسلامية كان يسمى رواق الأقباط.

وحينما ظهر الصليبيون في المنطقة بعد خمسمائة عام من دخول الإسلام إلى

مصر فإن أقباط مصر لم يظهرُوا أي قدر من التعاون أو التعاطف معهم ويرجع ذلك إلى إدراك الأقباط لأنهم أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الإسلامية، وأن الإسلام قد أعطاهم الحرية والعدل والاندماج وأن الحضارة الأوروبية الصليبية تعتبرهم كفاراً، لأن عقائدهم الكنسية تختلف عن عقائد الكنائس الأوروبية وخاصة حول طبيعة المسيح.

ولم يكن عجباً أن يصدر الصليبيون قراراً بمنع الأقباط من الحج إلى القدس بدعوى أنهم ملحدون، وكان من الطبيعي أيضاً أن يحزن الأقباط مثل المسلمين على سقوط القدس بيد الصليبيين.

وعندما احتل الصليبيون دمياط قاموا بخطف ٥٠٠ طفل قبطي سنة ١٢١٩ أثناء الحملة الصليبية الخامسة، وتم تعميدهم وفقاً للعقائد الكاثوليكية .

كما أن الملك لويس التاسع ملك فرنسا قام بفرض بطريرك كاثوليكي على مدينة دمياط عندما احتلها .

ولما انهزم الصليبيون في دمياط ابتهج الأقباط ولما رأى الملك الكامل منهم ذلك ركن إليهم وقربهم وعمل على ما فيه راحتهم.

إذاً فقد حاول الصليبيون تذويب الكنيسة المصرية أو تطويعها لصالح المشروع الصليبي، إلا أن الكنيسة المصرية رفضت ذلك دائماً.

ولم تتوقف تلك المحاولة بعد رحيل الصليبيين، ففي ١٧٦٩ تولى البطريرك يوانس الثامن عشر رئاسة الكنيسة المصرية. وكانت كنيسة روما تبذل قصارى جهدها لضم الكنائس الشرقية إليها، وعلى الأخص الكنيسة المصرية.

وبعث بابا روما مندوباً عنه إلى مصر يحمل رسالة يدعو فيها البطريرك القبطي للاتحاد معه. وطلب إلى البطريرك المصري أن يوافق على الرسالة ويرسل إليه موافقته على الاتحاد بين الكنيستين إلا أن البطريرك القبطي رفض تلك الدعوة وكلف أحد كبار اللاهوتيين من الأقباط بالرد عليها، فجاء الرد مشتملاً على أقسى أنواع العنف والسخرية والتهكم من العرض الرومي.

وجاء في هذا الرد ( وإني لأعجب من كثرة ذكائكم ودقة فهمكم الرفيع الذي لم نره من أحد قط من مدة كبيرة وما ينيف على ألف ومائتي سنة، وما سمعنا بأحد من المرسلين من قبل البابا الروماني كتب من عنده صورة رسالة إلى آبائي البطارقة الذين سلفوا قبلنا، ويعرفه فيها أن يكتبها للبابا الروماني ويخضع له ويصير تحت اعتقاده كما صنعتم أنتم ).

### خط رئيسي وخط هامشي؛

مع بداية صعود الحضارة الغربية الأوروبية في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر استهدفت أوروبا الصليبية القضاء على الحضارة الإسلامية والسيطرة على بلادنا ودخل في ضمن ذلك المخطط محاولة تذيب الكنائس الشرقية عموماً والكنيسة القبطية خصوصاً.

وكانت إرساليات التبشير هي المحاولة الأولى لتحقيق استطلاع مبكر لبلادنا، ومحاولة زرع قيم الحضارة الغربية فينا وتذويب الكنائس الشرقية وخاصة الكنيسة القبطية.

وبالطبع كان الخط الرئيسي للأمة هو الخط المعادي للمشروع الاستعماري والثقافة الاستعمارية والمكافح ضد النفوذ الأجنبي، وكان هناك أيضاً خط هامشي ارتبط بالمشروع الاستعماري وبثقافة الاستعمار.

وما حدث بالنسبة للأمة عموماً حدث أيضاً للأقباط، فكان هناك خط رئيسي منحاز إلى المشروع الحضاري الإسلامي لأمتنا، ومعاد للمشروع الحضاري الأوروبي وكان هناك أيضاً خط هامشي انحاز أو ارتبط بالمشروع الاستعماري وبثقافة الاستعمار.

ولم يكن الخط الهامشي يسيء إلى الخط الرئيسي، لأن الخط الهامشي خط لقيط وعميل ولا يسيء إلا إلى نفسه، وكذلك كان الخط الهامشي في الأقباط خط لا يسيء على مجمل الكيان القبطي بل يسيء إلى نفسه فقط، لأنه خط أيضاً عميل ولقيط.

الخط الرئيسي للكيان القبطي، كان خطأ متمسكاً بالتراث القبطي التقليدي، وهو التراث المنحاز والمندمج في الكيان الإسلامي والمشروع الحضاري الإسلامي، وهو الخط الذي يحافظ على تقاليد الكنيسة القبطية في الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية.

وهو الخط الذي يدرك أن الكنيسة القبطية متميزة ومختلفة عقائدياً عن الكنائس الأوروبية، وأنها مستهدفة دائماً للضرب والتذويب والاضطهاد من جانب الكنائس الأوروبية.

وهو الخط الذي رفض دائماً الاتحاد مع كنائس أوروبا، أو الانحياز إلى المشروع الحضاري الغربي.

بدأت المحاولة الأوروبية لزرع التفريب في واقعنا مبكراً قبل الحملات العسكرية لاحتلال بلادنا، وذلك عن طريق إرساليات التبشير، ففي نهاية القرن السابع عشر وفدت جماعة من الرهبان الكاثوليك لبث المذهب الكاثوليكي بين الأقباط.

وفي أوائل القرن الثامن عشر زاد عددهم، واستوطن بعضهم مدن الصعيد ونشطوا في جذب الأقباط وتبعهم عدد قليل من الأقباط نشأ به انقسام مذهبي بين الأسر القبطية.

ونشط الكاثوليك في استغلال هذا الانقسام للاجتزاء من سلطة البطريرك القبطي في مسائل الأحوال الشخصية ولكن الكنيسة القبطية وقفت ضد هذا الأمر، ولجأت إلى الحكومة فصدر من المحكمة الشرعية الكبرى في مصر سنة ١٨٣٧ حكم بأن تكون سلطة الفصل في هذه المسائل للبطريرك القبطي.

كما حشدت الكنيسة المصرية جهودها للتصدي لهذه الحملة التي شنتها الإرساليات الكاثوليكية، وسجل التاريخ ليو ساب الايخ أسقف جرجا وإخميم نشاطاً كبيراً في وقف النشاط الكاثوليكي، وبذل جهداً جباًراً في سبيل لم شعبه وضمه إلى أحضان الكنيسة الأرثوذكسية.

كان هذا هو الموقف الصحيح والتقليدي والمتفق مع تراث الكنيسة.

وعندما غزا الفرنسيون مصر سنة ١٧٩٨، حاولوا شق الصف الوطني، وجندوا لذلك عدداً من العملاء من الأقباط. بقيادة ( يعقوب ) الذي شكل ما يعرف بالفيلق القبطي وتعاون مع الفرنسيين على حساب شعبه، ولكن الخط الرئيسي والصحيح كان موجوداً، فرفض هذا الموقف.

ويذكر كتاب ( تاريخ الأمة القبطية ) ( ١٨٩٨ ) أن رجال الدين المسيحي لم يكونوا راضين عن الجنرال يعقوب، وأنه كانت بينه وبين البطريرك منازعات ومشاحنات بلغت حد دخول الجنرال الكنيسة وهو راكب جواده شاهر سلاحه.

ومع خروج الفرنسيين من مصر وجه البطريرك مرقس الثامن رسالة إلى الأقباط هاجم فيها بأسى ما ظهر في الفترة الأخيرة من ظواهر تعلم عادات الغربيين.

وهذه الرسالة تعكس مضموناً هاماً جداً فهي تعكس الإحساس بأن الفرنسيين حاولوا زرع غمط الثقافة والقيم الغربية في المجتمع المصري وخاصة بين الأقباط، كما تعكس هذه الرسالة رفض البطريرك لهذا الأمر وإدانتته ورفضه تعلم عادات الغربيين أي رفضه لقيم الحضارة الغربية والمشروع الحضاري والثقافي الغربي وتمسكه بالمشروع الحضاري الإسلامي، والبطريرك هنا يعكس التراث والموقف التقليدي للكنيسة المصرية.

يقول الأستاذ طارق البشري ( بهذه الروح النافرة من السيطرة الأجنبية والتغلغل الأجنبي واجهت الكنيسة المصرية نشاط الإرساليات التبشيرية، وقد ارتبط نشاط هذه الإرساليات في آسيا وأفريقيا عامة بسعي الدول الأوروبية والغربية إلى غزو هذه البلاد اقتصادياً وسياسياً، وإلى أن تخلق فيها أقليات ترتبط بها، وتكون مرفأ الوصول لجيوشها وسياساتها وإنتاجها الاقتصادي ).

ويقول الدكتور وليم سليمان ( إن أهم إرساليتين بروتستانتيتين وفدتا إلى مصر في القرن التاسع عشر جاءت إحداهما من إنجلترا والثانية من أمريكا عن طريق الشام،

وأن خطة الأمريكيين كانت هي القضاء على الكنيسة القبطية، وضم أبنائها إلى كنيسة بروتستانتية جديدة، بينما كانت خطة الإنجليز الإبقاء على كنيسة مصر مع التغلغل فيها والسيطرة عليها من الداخل).

ويقول الدكتور جرجس سلامة:

( إن التعليم الأجنبي في مصر انتشر على يد الإرساليات التبشيرية، وقد حاول باباوات روما إخضاع الكنيسة القبطية وإجبارها على الاعتراف برياستهم. وذلك بما أرسلوا من رهبان فرنسيسكان بلغ بهم الأمر أنهم كانوا يخطفون الأطفال ويرسلونهم إلى روما لتعلم الكاثوليكية إلا أن الأقباط قاوموا هذه الحركة إلى حد أنهم استولوا على كنائس الفرنسيسكان وطردوهم منها).

وفي القرن التاسع عشر أضيف على نشاط الكاثوليك نشاط البروتستانت الإنجليز والأمريكان، وأنشأ هؤلاء مدارس لهم جميعاً، وكانوا يستهدفون بهذا النشاط التعليمي أغراضاً دينية خاصة بنشر الكاثوليكية والبروتستانتية بين أقباط مصر خاصة.

واتخذوا التعليم المجاني وسيلة لجذب الفقراء من تلاميذ الأقباط، ولم تركز تلك الإرساليات نشاطها في القاهرة والإسكندرية فقط إنما توغلت في الصعيد والريف. وقد عارضت الكنيسة القبطية هذا النشاط وسافر البطريرك المصري إلى أسبوط، وعمل على الوقوف في وجه هذا النشاط، وعلى منع القبط من إرسال أبنائهم إلى مدارس التبشير. وطاف الكهنة على البيوت يحرمون على كل أب أن يرسل أولاده إلى هذه المدارس.

وأعلن الحرمان الكنسي ضد من يرسل أولاده إلى هذه المدارس، أو يزور مكاتبها أو يقرأ كتبها أو يصافي أو يصادق أحداً من المبشرين.

ويذكر المبشر الاسكتلندي الدكتور هوج ( أنه لما قويت هذه المقاومة ذهب مع القنصل الأمريكي لزيارة البطريرك لتخفيف هذه المقاومة إلا أن البطريرك لم يرتح

لهذه الزيارة، لأنه كان يعتبر القس الذي أمامه ليس قسا بل ذئبًا يخطف الأولاد، ولذلك فمن حق الآباء أن يستردوا أبناءهم وأن يستعملوا كل واسطة في المحافظة عليهم).

ويعلق الأستاذ طارق البشري على ذلك بقوله ( وتبدو هنا روح الكبرياء والمقاومة ضد الثقافة الغربية والنفوذ الغربي ).

وفي أوائل عقد السبعينات في القرن التاسع عشر ( ١٨٧٠ ) - نصب الأنبا كيرلس الخامس بطريكاً للأقباط وواصل مقاومته للتيار التبشيري وسافر البطريرك إلى أسبوط ونشط في مقاومة الإرساليات وأمر بتجريد قسيس من رتبته لمساحة لأخيه المتخرج من مدرسة الإرسالية الأمريكية بالخدمة في الكنيسة القبطية كما أصدر مطران أسبوط فرماناً كنسياً لثلاثة من تلاميذ الإرسالية، وأمر البطريرك بإحراق كل الكتب البروتستانتية في أسبوط، ثم سافر إلى أبو تيج وإخميم حيث أغلقت مدرسة الإرسالية هناك .

وهكذا نرى كيف ظلت الكنيسة القبطية متمسكة دائماً بتراثها التقليدي في الاستقلال عن الكنائس الأوروبية، ورفضها لمحاولات التذويب والدمج برغم الاضطهاد وإرساليات التبشير، واستخدام النفوذ الاستعماري لتحقيق ذلك وكذلك رفضها المستمر للمشروع الحضاري الغربي، وتمسكها بالمشروع الحضاري الإسلامي والثقافة الحضارية الإسلامية للأمة.

نعم كان هذا هو الخط الذي يعكس تراث الكنيسة وعقائدها ومصالحها كان هذا هو الخط - الذي انحاز إلى الحركة الإسلامية الوطنية في كفاحها ضد الاستعمار - كان هذا الخط هو الذي أدان سلوك الجنرال يعقوب ورفضه.

وكان هذا الخط هو الذي انخرط في الكفاح الإسلامي تحت قيادة الأفغاني والنديم وعرابي، وكان البطريرك القبطي ينطلق من الموقف التقليدي للكنيسة في انحيازها إلى الثقافة الإسلامية ورفضها للمشروع الثقافي الغربي عندما هاجم المدارس التبشيرية وتصدى لإرساليات التبشير.

وهو الخط الذي جعل البطريرك القبطي ينحاز إلى عرابي في مواجهة الإنجليز

والخديوي، بل ويوقع على قرارات المجلس العرفي بعزل الخديوي واستمرار مقاومة  
وقتل الإنجليز تحت قيادة عرابي.

وهو الخط الذي جعل الكثير من الأقباط ينخرطون في الكفاح الإسلامي الوطني  
تحت قيادة مصطفى كامل ومحمد فريد، وهو الخط الذي جعل البطريرك يرفض  
الموافقة على عقد المؤتمر القبطي الذي أوعز به الاستعمار الإنجليزي سنة ١٩١١.

وهو الخط أيضاً الذي شارك في الكفاح الإسلامي الوطني في ثورة ١٩١٩ ضد  
الاحتلال الإنجليزي، وهو الخط الذي دافع عن حسن البناء وشهد معه الإسماعيلية.  
وهو الخط الذي جعل كثيراً من الأقباط يناضلون من خلال حزب مصر الفتاة ذي  
التوجهات الإسلامية الواضحة.

كان هذا هو الخط الطبيعي والرئيسي في الكنيسة المصرية - وهو الخط الذي مثله  
دائماً الأكليروس القبطي ورجال الكنيسة، ومثله دائماً عموم الأقباط وهو الخط الذي  
يعكس بأمانة تراث الكنيسة القبطية وتقاليدها الراسخة وعقائدها المتميزة.

هذا الخط يؤكد على:

- أن الكنيسة المصرية كنيسة مستقلة في عقائدها عن الكنائس الأوروبية، تعرضت  
للاضطهاد على يد الرومان والصلبيين والاستعمار وأنها مستهدفة للتذويب والدمج  
من قبل الكنائس الأوروبية في الفترة الرومانية وأثناء الغزو الصليبي، وفي مرحلة  
الاستعمار والإرساليات التبشيرية.

أن الكنيسة القبطية رفضت دائماً وبإصرار محاولات الاتحاد والدمج أو الذوبان  
في الكنائس الأوروبية.

- أن الأقباط أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من المشروع الحضاري الإسلامي وأنهم  
يتمنون إلى الإسلام كثقافة وكحضارة وكوطن.

- إن الأقباط والكنيسة القبطية رفضت وترفض المشروع الحضاري الغربي  
الأوروبي على مستوى الثقافة والسلوك والقيم والانتماء السياسي وعلى مستوى

وبالإضافة إلى هذا الخط الرئيسي كان هناك خط هامشي يعكس الولاء للاستعمار والمشروع الحضاري الغربي.. ولكنه ظل دائماً خطأ هامشياً ولقيطاً وملفوظاً من الأقباط، وسوف نناقش هذا الخط في الفصل القادم إن شاء الله.